الأدب المغاربي الحديث

-رؤية في الخصائص الجمالية-

تشكل الأدب المغاربي الحديث،ضمن تحولات تاريخية،وتيارات حضارية،وذلك بحكم المنطقة الجغرافية التي ينتمي إليها.والمعروف أنها منطقة تواترت عليها الكثير من الحقب التاريخية،والأحداث ،والسياسات،والإيديولوجيات،التي كان لها تأثير مباشر أو غير مباشر في طبيعة الإبداع الذي لم يلق في بدايات عهده الاهتمام اللائق.ولكن مع التحولات التاريخية المتعاقبة،وتوالي الحقب الزمنية،استطاع أن يأخذ لنفسه مكانة جعلت الاحتفاء به محليا ودوليا أمرا واقعا[1].

والاقتراب أكثر من الأدب المغاربي الحديث،يحركه سؤال هام جدا،هو هذا الذي يتمركز حول خصوصياته الجمالية!؟..وكيف صارت الرؤية إليه أمام نظيره الأدب المشرقي!؟..مع أن المسألة متعلقة دائما بالجانب الإعلامي،ومدى الانتشار،وإن كانت المقومات الحضارية التي ميزت الأدب المشرقي عاملا هاما في تطوره.

في علاقة الأدب المغاربي بنظيره المشرقي يتبادر إلى الذهن مباشرة،موضوع التقليد.والمسألة بالتأكيد لها مبرراتها الموضوعية،من حيث قوة التمثل الحضاري،والانفتاح والقدرة على استيعاب مختلف أشكال التعبير الأدبي،إضافة إلى السبق التاريخي،وكذا الضخامة الإعلامية التي تميز بها ولا يزال يتميز بها الأدب المشرقي.

وتثبت المعطيات التاريخية أن الأدباء المغاربة في البداية كتبوا أدبا أقرب ما يكون إلى الأدب المشرقي،أدب مقلد يضعف فيه الإبداع في جوانب واسعة.

ولكن الملاحظ هو هذه النقلة النوعية للأدب المغاربي الحديث،من حيث الخصوصية،والتميز؛مرد ذلك إلى إرادة الأدباء المغاربة في كتابة أدب مغاربي يخلصهم من التبعية للمشارقة.وقد فعلوا في البداية ذلك عندما كتبوا روايات وقصائد باللغة الفرنسية،فكانت إبداعات "محمد عزيزة" من تونس،وروايات "إدريس الشرايبي"،وكذا "الطاهر بن جلون"من المغرب،ثم روايات "مولود فرعون"،و"مولود معمري"،و"محمد ديب"،و"كاتب ياسين"من الجزائر؛أعمال هؤلاء الكتاب في الحقيقة هي اليوم في مصاف العالمية.

صادفت الكتابة باللغة الفرنسية إشكالية أخرى،هي إشكالية الهوية،وهي الإشكالية التي أوصلت إلى طرح السؤال الجوهري:هل الأدب المغاربي فرنسي بحكم اللغة التي يكتب بها؟أم هو عربي الروح والانتماء من حيث المضمون رغم اللغة الأجنبية التي يكتب بها؟مثل هذه التساؤلات قد توصل إلى طرح إشكالية أخرى أعمق،هي إشكالية الانتماء.

والمعروف أن ظاهرة الكتابة بلغة المستعمر،ليست خاصة بالمغرب العربي وحده،«فقد عرفتها بنسب متفاوتة معظم بلدان إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية،التي كانت خاضعة في يوم من الأيام للاستعمار الفرنسي؛وما زال بعضها خاضعا لهذا الاستعمار حتى اليوم.كما أنها ليست ظاهرة خاصة بالاستعمار الفرنسي وحده،فقد وجدت في أغلب البلدان التي احتلتها الدول الأوروبية في القارات الثلاث، حيث توجد اليوم آداب مختلفة كتبت وتكتب في تلك البلدان باللغات

[1] للإشارة هناك ملف حول الموضوع نفسه،نشر في جريدة النصر الجزائرية-يومية وطنية-،يومي:26/12 ماي 2009،في جزئين.

الإنجليزية،والفرنسية،والإسبانية،والبرتغالية،وإلى حد ما باللغة الهولندية؛أي بلغات الدول الاستعمارية الأوروبية التقليدية التي بدأت هجماتها على القارات الأخرى بعد اكتشاف أمريكا،ورأس الرجاء الصالح»[1].

في الوقت الذي كانت تعالج فيه ثلاثية الكاتب الجزائري "محمد ديب"الوضع الاجتماعي،وخصوصيات المأساة الاجتماعية في الجزائر،كانت أعمال الكاتب التونسي "محمود المسعدي"في بدايات الظهور،والتي تميزت بلغة عربية أصيلة شبيهة تماما بلغة فطاحل الشعراء الجاهليين،مع حداثة فكر يقترب من أرقى الفلسفات الوجودية المعاصرة.ولعلها الأعمال التي سبقت أعمال الكاتب الجزائري كاتب ياسين،وكذا الكاتب الجزائري والشاعر"مالك حداد"،..وغيرهم من الذين زامنوهم،وأحدثوا أفضل السبق في الكتابة باللغة الفرنسية.ومع اتساع احترافية الكتابة المغاربية باللغتين العربية والفرنسية،بدأت تتحدد خصوصيات الكتابة الأدبية المغاربية،التي جعلت من الفكر والتاريخ،والمرويات التراثية الشفوية والكتابية،محاور كبرى لها،محققة بذلك انزياحها النوعي عن الكتابة المشرقية التقليدية التي أجادت الإبداع باللغة العربية الكلاسيكية.ولكن هذا التقسيم بين الأدبين-مشرقي ومغاربي-،بدأ يزول شيئا فشيئا،نتيجة نضج التجارب الأدبية العربية،وظهور الكثير منها،ووصول الأدب العربي إلى مصاف العالمية.

-أ-الأدب المغاربي الحديث-إشكالية الماهية-:

لا تمثل عبارة "الأدب المغاربي"،غير كونها مصطلحا أدبيا فرضته حقبة تاريخية معينة،هي تلك التي اشتركت فيها أكبر أقطار المغرب العربي،والمقصود بذلك الأقطار الشمالية في إفريقيا،وهي:الجزائر،تونس،المغرب الأقصى.ويقصد بكلمة "الحديث"،الجانب الزمني للظاهرة الأدبية ليس إلا.

في الحديث عن الحقبة التاريخية التي ميزت أقطار المغرب العربي الثلاثة،يلاحظ بأنها حقبة مشتركة-كما سلف القول- ؛بمعنى أنها أقطار عاشت التجربة الاستعمارية نفسها،تحت حكم عسكري واحد،هو الحكم الفرنسي.

والملاحظ أن مصطلح الأدب المغاربي الحديث،برز إلى الوجود بصفة أقرب إلى التداول في سنوات الخمسينات من القرن الماضي(القرن العشرون)؛كان هذا مع بداية حركات التحرر في العالم،والعالم العربي،واتساع رقعة "المد الثوري".وكانت أولى التجارب الروائية المغاربية الجادة التي بدئ في نشرها في ذلك الوقت،ما قامت به منشورات"لوسوي"الفرنسية Le Seuil،ضمن السلسلة الروائيةMéditéranniene،والتي أشرف على إدارتها آنذاك الفرنسي والجزائري المولد"إيمانويل روبلس".وكانت البداية مع أعمال الجزائريين الروائية،مولود فرعون،محمد ديب،مولود معمري،ثم المغربي"محمد خير الدين".

استمر استخدام المصطلح"الأدب المغاربي"،إلى غاية السبعينات من القرن الماضي،للإشارة إلى أعمال ومؤلفات كتاب أو شعراء ينتمون للمنطقة الجغرافية نفسها،ويشتركون حول موضوع مقاومة الاستعمار،وحق أهالي المنطقة في تقرير مصيرها،وانتقاء خياراتها.وتجدر الإشارة في هذا الصدد،إلى الأعمال النقدية لمنظري المصطلح؛يقصد بذلك المفكر المغربي"عبد الكبير الخطيبي"،الذي أنجز في نهاية الستينات من القرن الماضي أطروحة دكتوراه دولة حول "سوسيولوجيا الرواية المغاربية"،وهي الأطروحة التي أنجزها في جامعة السربون.وكذا كتاب الفرنسي الذي أقام في الجزائر مطولا"جون

---

[1] د/أحمد منور:الأدب الجزائري باللسان الفرنسي-نشأته وتطوره وقضاياه-،ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر،الطبعة الأولى 2007،ص:134/133

ديجو"،"الأدب المغاربي"،الصادر في مطلع السبعينات من القرن الماضي.ثم أعمال الفرنسي"شارل بون"،الذي نشر العديد من المقالات في السبعينات حول موضوع"الأدب المغاربي".

غير أن الراهن يطرح جملة إشكالات،لعل أهمها هو هذا "التنافر" الحاصل في واقع الشعوب بفعل تأثير التوجهات السياسية؛إذ صار الراهن يكرس فرضية التنافر أكثر من فرضية "التقارب"،عكس ما يسميه الساسة "بالوحدة المغاربية"،مما يجعل وضعية المصطلح في وضع حرج،نتيجة الخلافات والصدامات الداخلية المتكررة من مناسبة إلى أخرى،الشئ الذي يترك المصطلح مجددا رهن صفحة مشرقة من صفحات ماضي الأمة التليد.

إن الحديث عن الأدب المغاربي،أشبه ما يكون بالحديث عن تلك العلاقة بين جزر متباعدة في محيط واحد،رغم العلاقات التاريخية والجغرافية،واللغوية،والدينية التي تجمع أقطار المغرب العربي.ومن الممكن أن يشمل هذا الكلام نوعا من الأسف والسوداوية والإحباط،الذي تسببت فيه الآلة السياسية في حقب تاريخية مختلفة،وكان لها بالغ الأثر على الكتابة والإبداع،لدرجة أن الحديث عن الأدب المغاربي صار أشبه ما يكون بالحديث عن حساسيات قائمة بين إخوة وأشقاء،بدل من طرح بدائل نوعية تحيل على انسجام الأفكار والرؤى،والتطلع إلى آفاق واضحة.

يستلزم الحديث في هذه الحال عن الخلل في التواصل بين الأعمال الإبداعية في مختلف أقطار المغرب العربي.والواضح بشكل جلي أن هناك حساسية،غير منسجمة بالمعنى الجمالي،بين ما يكتب من إبداعات على الأقل في مختلف البلدان المغاربية؛هذا يقتضي وضع اليد على مكامن الخلل،الذي يحدث الهوة يوما بعد يوم بين مختلف المبدعين،ويعيقهم عن التواصل الإيجابي.ومهما يكن من حديث حول ما يكتب سواء كان رواية أم شعرا،فالتباعد في الحساسية وفي الذوق يبدو واضحا،وكذا التباعد في المعالجة الموضوعية،التي تعطي للإبداع قيمته،ويثبت وجوده كمنتوج قابل للانتشار والتداول على أوسع نطاق.

وتجدر الملاحظة إلى أن الباحثين الفرنسيين الذين اهتموا بالدارسات المقارنة،ووضع قواعدها ومناهجها،وتوجيهها الوجهة التي أرادوا لها أن تكون،«أغفلوا إغفالا تاما الحديث عن أدب المستعمرات،سواء منها المستعمرات الفرنسية أو المستعمرات الأوروبية الأخرى،وتركزت بحوثهم أساسا على نماذج و أمثلة من القارة الأوروبية،وتناولت في الغالب الأعم علاقات التأثير والتأثر بين الأدب الفرنسي من جهة،والأدب القومي لأحد البلدان الأوروبية الأخرى من جهة ثانية،وبالأخص العلاقة مع الآداب القومية الكبرى،كالأدب الألماني،والإنكليزي،والروسي،والإيطالي،والإسباني»[1]،في الوقت ذاته لم يغفل هؤلاء الباحثون،البحث في العلاقات القائمة مع آداب قومية أخرى لم تحقق الانتشار المطلوب،كالأدب الهولندي،والأدب البولندي،والأدب البرتغالي[2].إلا أنه قد تحدث بعض الاستثناءات النوعية،في خروجهم عن ذلك التقليد،الذي يجعل البحوث تتركز في القارة الأوروبية،ويؤكد الحضور المستمر للأدب الفرنسي في أغلب البحوث[3].

---

(1) المرجع السابق،ص:136/135

(2) أعاب عليهم الباحث المعروف"رينيه ويليك" هذه النظرة القومية الضيقة،وسخر منها إلى حد اعتبارها نوعا من محاولات تضخيم أرصدة آداب قومية معينة.ينظر في ذلك كتابه:مفاهيم نقدية،سلسلة عالم المعرفة،-دولة الكويت،ترجمة،د/محمد عصفور،شباط/فبراير 1987،ص:368.

(3) يمكن لأي باحث أو مهتم ملاحظة ذلك لدى أشهر كتب الأدب المقارن الفرنسية،لأشهر الباحثين والمختصين في هذا المجال،أمثال:فيليب فان تيغيم،جان ماري كاري،ماريوس فرانسوا كويار،كلود بيشوا،أ.م.روسو،للتأكد من هذه الرؤية ذات التوجه المركزي،والمنحازة للثقافة الفرنسية.مع أنه وجد باحثون فرنسيون ناقضوا هذه الرؤية تماما.

بقي الأدب المغاربي الحديث من الناحية الجغرافية،على درجة هامة من القرابة والجوار،ويبقى الأمل الثقافي قائما في أن يتحول هذا الجوار إلى حوار ثقافي وحضاري جاد،يرفع من قيمة هذا الأدب.

وبالعودة إلى المقاربة بين الأدب المشرقي والأدب المغاربي،يلاحظ البعض تلك النظرة الفوقية من لدن الإخوة المشارقة،التي تصل في بعض الأحيان إلى مستوى الوصاية الأبوية.ربما للاعتقاد الراسخ بأن المشارقة سبقوا المغاربة في التراكم الإبداعي والنقدي،وصارت لديهم أسماء أدبية ونقدية لامعة.وهذه حقيقة تقتضي الموضوعية والإنصاف للإقرار بها؛في حين بقي الأدب المغاربي يتطور في صمت.لكن المفاجأة هي أن الأدب المغاربي أحدث قفزة نوعية في العقدين الأخيرين(التسعينات والألفية الأولى)،فصار له حضورا مميزا خاصة في مجال النقد؛وبتحديد أكثر في الدراسات اللغوية واللسانية،التي حقق فيها سبقا كبيرا لم يوجد بعد عند المشارقة.

بدأ يلاحظ في السنوات الأخيرة أن المغرب العربي أنتج نقدا جديدا،بنظريات جديدة مواكبة للتطورات الفكرية،والطروحات النقدية العالمية؛مع أن المسألة في أعماقها هي أصداء لنظريات نقدية عالمية،مستوعبة بفعل الترجمة.ولكن يحمد للنقد المغاربي أنه نقد منفتح مواكب،وله إسهاماته.

بالنسبة للإبداع يجري الحكم نفسه على وجه التقريب،مع ملاحظة الاختلافات القائمة بين الأقطار،والمحددة بخصوصيات الإبداع من بلد إلى بلد.ومع ذلك تتقاسم هذه الأقطار الهواجس نفسها،وتشترك مع بعضها البعض في المنطلقات الفكرية والإبداعية.وبغض النظر عن الجزائر والمغرب وتونس؛في ليبيا مثلا توجد أسماء أدبية لامعة،هي اليوم في مصاف العالمية،مثل إبراهيم الكوني،وإبراهيم البقيع،إلى جانب أسماء جديدة يمكن أن تجد لها مكانا متقدما في الساحة الإبداعية المغاربية.

ولا يمكن التصور أن المسألة تقف عند الحدود العنصرية بين الأدب المشرقي والأدب المغاربي،بحكم أن نتيجة الانفتاح الإعلامي اليوم صارت من خلالها الحواجز تبدو واهية إلى حد كبير،وصار التواصل بين الأدباء أكثر قوة وحضورا،وكذا بين القراء أيضا.

-ب-الأدب المغاربي،الوظيفة والجدوى:

ما يعرف دائما عن المغرب العربي،هو هذا المحيط المشترك بين ثقافات و تواريخ وأعراق،وحدود جغرافية تمتد من شمال إفريقيا إلى غربها.والشعوب القديمة التي سكنت بعضا من هذه المناطق كانت تعي هذه الحقيقة؛فالفراعنة مثلا منذ آلاف السنين حين فكروا في التوسع اتجهوا جهة المشرق العربي،نحو تخوم الشام ولم يفكروا في المغرب العربي.وفي التسعينات من القرن الماضي يعرف الكثير موضوع رغبة مصر في الانضمام إلى اتحاد المغرب العربي،ولم يتم ذلك بحكم مشرقية مصر رغم انتمائها الإفريقي،ومجاورتها لبلدان المغرب العربي؛باستمرار كانت العلاقة الجامعة بين بلدان المغرب العربي،تلك المقومات الحضارية التي مثلت التاريخ،واللغة،والدين الإسلامي.

وبمجيء الاستعمار الأوروبي،صارت الساحة المغاربية تعرف ما يسمى بمصطلح"الحداثة"،وهو المصطلح الذي استمد غالبية تنظيراته من الثقافة الأوروبية بفرعيها الفرنكفوني والأنجلوساكسوني،فدخل مشترك ثقافي جديد هو الأدب المغاربي المكتوب باللغة الفرنسية،الذي رغم قصر فترة تأسيسه في الخمسينات من القرن الماضي، إلا أنه صار رافدا هاما من روافد الأدب العالمي.

ولكن تسجل الساحة الثقافية المغاربية،ميولات كبيرة في الكتابة الأدبية باللغة العربية،بحكم أن اللغة العربية هي في حقيقتها اللغة الأم في تلك الأقطار،والكتابة بها تعني الكتابة عن الذات والتعبير عن انشغالاتها.نتيجة هذا السبب المركزي،كانت الحساسية النسبية من أعمال الكتاب المغاربة الذين كتبوا باللغة الفرنسية،من حيث اعتبار أدبهم "أدبا أجنبيا"،بالنظر إلى الأصول الأجنبية التي ينتمي إليها أولئك الكتاب المغاربة،أو إلى مضامين الأعمال،أو حتى الأساليب العربية في شكلها العامي.ناهيك عن علاقات الصراع القائمة بين المعربين والمفرنسين،نتيجة اختلاف وجهات النظر.

وبالعودة مجددا إلى مسألة الانتماء أو الهوية،لا بد من إدراك أبعاد المشكلة من أساسها،والتعمق الموضوعي في فهمها.فعلى سبيل المثال،لا بد من الفهم أن«مسألة الانتماء إلى الجزائر قد طرحت،من الناحية التاريخية قبل مطلع القرن العشرين من قبل المستوطنين الفرنسيين،وكان هناك من بينهم من ولد في الجزائر،الذين أرادوا بعد أن تم لهم انتزاع الأرض من أهلها،أن ينتزعوا منهم الانتساب إليها أيضا،فوصفوا أنفسهم ب"الجزائريين"،وكتبوا أدبا أرادوه أن يكون من "داخل الجزائر"»[1]،له مميزاته الفنية الخاصة،وله استقلاليته أيضا،مقابل الأدب الذي كتبه عن الجزائر،كتاب أجانب[2].وقد أكد الكاتب"ميزات"Musette [3]،هذه الصفة،حيث ورد هذا على لسان"كاغايو" أشهر أبطال إحدى قصصه،حين كان يسأل: هل أنتم فرنسيون؟،كان يجيب بعفوية تامة:"لا نحن جزائريون"[4].

في الحديث اليوم عن الأدب المغاربي الحديث،يحضر الحديث عن القواسم المشتركة بين الآداب المغاربية؛وتشيعا للموضوعية العلمية ينبغي الحديث كذلك عن "المختلف"بين هذه الآداب،التي تستمد عوامل ثرائها ما يعزز وحدتها ويقوي تنوعها.ولعل ما يقوي عوامل الوحدة في الأدب المغاربي،هو هذا الإجماع داخل الأوساط الأدبية المغاربية،على أهمية إحداث نهضة مغاربية حقيقية شاملة،وعلى أهمية تحديث المجتمعات المغاربية.أما غنى التنوع فيجتمع في عامل التوزيع الجغرافي لهذا "الأدب النامي"،الذي اقتسمت أنواعه أهم عواصم المغرب العربي،حيث صارت تونس عاصمة للشعر،والجزائر عاصمة للرواية،والمغرب عاصمة للقصة القصيرة.

ويمكن التأكيد مجددا على مسألة "التحقيب السياسي"للأدب،وهي المسألة التي لا ترتبط بالضرورة ارتباطا عضويا بالتطور التاريخي للأدب بشكل عام.وبخصوص الأدب المغاربي فبغض النظر عن الإشكالات المطروحة على مستوى التسمية،نتيجة ما يسمى ب"التحقيب السياسي"،كالحديث عن الأدب الأموي والعباسي على سبيل المثال...فبغض النظر عن التحولات السياسية،يمكن أن تجد التحولات الاقتصادية والاجتماعية السبيل الموضوعي لصناعة الأدب المغاربي الحديث،وتطويره بعد ذلك.ومن السهل جدا أن يربط بعض الباحثين في مجال الاختصاص تطور الأدب المغاربي الحديث،بالتطورات التاريخية الحاصلة،وهي التطورات الناتجة عن الحركات التحررية في العالم العربي، وكذلك المغرب العربي.مثل هذا الربط موضوعي إلى حد كبير،ولكن ينبغي أن يكون نتاجا للتحولات الاجتماعية والاقتصادية الحاصلة.

ويمكن القول بوضوح:إن البنية الاجتماعية للمجتمعات المغاربية الحديثة،لا يتم الحديث عنها بمعزل عن علاقاتها المباشرة بالتحولات الاقتصادية الجديدة.ولعلها التحولات التي باستطاعتها صياغة نمط جديد من الفكر،يبتعد عن النطاق

---

(1) د/أحمد منور:الأدب الجزائري باللسان الفرنسي–نشأته وتطوره وقضاياه–،ص:138

(2) Jean Déjeux, La Littérature Algérienne Contemporaine,coll.que-sais-je,puf,paris 1975,p:11/12

(3) Ibid ,p:23

(4) Fadila Yahiaoui, Roman Et Société Coloniale dans l'algérie de l'entre deux guerre..ed,enal-alger-Bruxelles,1985,p:17

التقليدي المحافظ،ويقترب بالتدريج من نطاق الحداثة المنفتح.وحتى العامل التاريخي الذي يسهم في تطور الإنتاج الأدبي لا يتم الإقرار به،إلا من منطلق التحولات الاقتصادية والاجتماعية الحاصلة،وهذا تفسير التحول المستمر للبنية الاجتماعية الحاصلة في المجتمعات المغاربية الحديثة.

عرفت المجتمعات المغاربية نقلات اجتماعية هامة على امتداد تطوراتها التاريخية المتلاحقة،وهي التطورات التي كان لها الفضل،في إيصال هذه المجتمعات على ما هي عليه اليوم.ولعل أهم نقلة نوعية عرفتها هي التحرر من ربقة الاستعمار الأوروبي.ومن الواضح الحديث عن هذه النقلة بشكل كبير من الإيجابية على أن ترتبط هي الأخرى بنمو الوعي لدى الأفراد،والذي هو في الواقع نتاج لتلك التطورات التاريخية الحاصلة.

إن الارتباط العضوي بين الأدب المغاربي الحديث،وواقع المجتمعات المغاربية،هو في الأساس التفسير الطبيعي لنتيجة التطور الذي يعرفه هذا الأدب اليوم.وعليه فالتحولات السياسية وحدها لا تعني بالضرورة التحولات الأدبية،لأن التحولات السياسية هي في حد ذاتها مظهر من مظاهر التطور التاريخي،والاقتصادي،والاجتماعي.وبحكم السعي المستميت للاستعمار في سبيل الإبقاء على السيطرة،سعى لإيجاد نخبة ثقافية تنتج أدبا ينطق بواقع تلك البلدان المستعمرة؛وفعلا فقد وجدت فئة من الكتاب تعاطفت مع "الأهالي" في بعض مستعمرات المغرب العربي،«حاولت أن تتفتح على محيطهم،وأن تقترب منهم،بل،وتتقرب إليهم،وتتعلم لغتهم،وتكتب عنهم قصصا وروايات،وتدافع أحيانا عن بعض قضاياهم،لأنها اقتنعت،فيما بدا من توجه هذه الفئة-وقد تمكن المحتلون من بسط سيطرتهم الكاملة على مقدرات البلد،واطمأنوا إلى تفوقهم الساحق على الأهالي-بأنه لا بد من منح فرصة لهؤلاء الأهالي لكي يسهموا بدور ما في حياة المستعمرة،حتى ولو كان دورا هامشيا،والسماح لكل من يبدي منهم استعدادا بالاندماج في المجتمع الاستيطاني الجديد،وهذا ما برز على الخصوص في كتابات"ألبير تروفيموس"و"ستيفان راوول"و"إيزابيل إيبرهاردت"،و"ماكسيميليان هيلر"،و"لوي لوكوك"،الذين اهتموا بتصوير العادات والتقاليد والاحتفالات الدينية لدى المسلمين و لدى اليهود،وكذلك اعتنوا بتصوير حياة المستوطنين اليومية في القرى وفي المدن الداخلية الصغيرة،ونقل جانب من علاقاتهم مع "الأهالي"،ومع بعضهم البعض،وعالجوا بعض المسائل التي تمس بصفة عامة المجتمع الاستيطاني المتعدد الأعراق والديانات،وأولوا اهتماما خاصا بمسألة الزواج بين مختلف الطوائف،ولاسيما بين المسلمين والمسيحيين من جهة،و بين اليهود والمسيحيين من جهة أخرى»[1].ويعود سبب التركيز على مثل هذه المسائل الحساسة،محاولة إيجاد نوع من التناغم والانسجام،بين مختلف الطوائف الدينية التي تعيش ضمن مجتمع واحد،وكذا السعي إلى إيجاد نوع من الإثارة والتشويق في طرق مثل هذه المواضيع،لما فيها من صعاب،وحساسيات،من شأنها توليد رؤية درامية فنية[2].

وعليه يبقى الأدب دائما محافظا على خصوصية تطوره،على الرغم من الارتباط العضوي القائم بينه،وبين التحولات التاريخية،التي هي نتاج لتحولات البنية التحتية.

يكتسب الأدب المغاربي الحديث من الجانب الفني والثقافي،خصوصية التعبير عن أدب منطقة جغرافية معينة،لها هي الأخرى خصوصياتها التاريخية، والثقافية،والأنثربولوجية.ولم يشهد المغرب العربي النهضة الثقافية الحديثة،إلا بعد أن عرفها

([1]) د/أحمد منور:الأدب الجزائري باللسان الفرنسي-نشأته وتطوره وقضاياه-،ص:141/140

([2]) Fadila Yahiaoui , Roman Et Société Coloniale,dans l'algérie de l'entre deux guerre..p:29

المشرق العربي،لذلك كانت المركزية في الإنتاج الفني والأدبي،والثقافي بشكل عام،مرتبطة أساسا بالمشرق العربي.إضافة إلى ذلك فالمشرق هو المركز الفعلي للحضارة العربية الإسلامية،ناهيك عن الحضارة الإنسانية بشكل عام.وعليه فموضوع المركزية الثقافية بالنسبة للشعوب العربية،سواء كانت مشرقية أم مغربية،لا يطرح المزيد من الإشكالات الجديدة،بحكم أن الإشعاع الحضاري واضح المركز،لاسيما أن المسألة ارتبطت في حقبة من حقب التطورات التاريخية في المجتمعات العربية بظهور الإسلام،وما أحدثه ظهور هذا الدين الجديد بعد ذلك من تحولات حضارية جذرية،وتغيرات جد عميقة في مسارات التاريخ العالمية،والتي انعكست إثر ذلك انعكاسا مباشرا على أنماط عقيدة وتفكير،وسلوكات الناس الذين اعتنقوا الإسلام.

ظل للمغرب الإسلامي من جانب آخر تفرده المميز؛فالحضارة الأندلسية مثلا،التي عدت في وقت ما حاضرة من حواضر البلاد الإسلامية،أنتجت رؤى وتصورات فكرية،كانت لها انعكاسات مباشرة في الجوانب الأدبية واللغوية،اختلفت في الكثير من أوجهها عن مثيلتها في المركز(المشرق العربي)؛هذا التفرد شغل بال الكثير من الباحثين إلى يومنا هذا.فملاحظة الحركة الثقافية على مستوى الإنتاج الفكري ،أو الأدبي،أو الفلسفي في المغرب العربي،تثبت أن هذه البلدان على حالة من الدينامية(الحركية)،وعمق اشتغال،وتميز،لاسيما في العواصم الكبرى لتونس،والجزائر،والمغرب؛حيث يمكن استشفاف خاصية مميزة في الإبداع الروائي،وكذا في الخطاب النقدي.

وليس جديدا القول أيضا:أن الكاتب والناقد المغاربيين قد استفادا كثيرا من الانفتاح على النظريات الغربية،الأوروبية منها خاصة في مجال الرواية،والشعر،والنقد؛الشئ الذي دفع بالتجربة الأدبية المغاربية الحديثة إلى "التجريب"مبكرا مستفيدة من المنجزات الإبداعية الحديثة.إضافة إلى أن الانفتاح على الحركة الأدبية والنقدية في فرنسا على وجه الخصوص،أثرى التجربة الأدبية المغاربية،ودفعها إلى العمق والتجديد،مما فتح للأدب المغاربي مساحات جديدة،أدت إلى اكتشاف مساحات تعبيرية جديدة،وإتقان الصناعة الأدبية،والتحكم فيها عن وعي وإتقان.

لوحظ في الثمانينات من القرن الماضي،هيمنة الخطاب النقدي على الخطاب الإبداعي في الساحة الثقافية المغاربية،وقد امتدت هذه الهيمنة إلى أواخر التسعينات.و يعود السبب المباشر في ذلك إلى الرعاية التي لقيها الخطاب النقدي من لدن الباحثين،والأكاديميين الجامعيين،الذين تأثروا كثيرا بما أنتجه الغرب من نظريات نقدية.

ومع الألفية الأولى لهذا القرن لوحظت تحولات نوعية،وعلى درجة من الأهمية،تمثلت في تخلص المبدع المغاربي من الهاجس التنظيري،بفضل المجهودات التي قام بها من أجل استيعاب النظريات النقدية الغربية،الفرنسية،والإنجليزية،والأمريكية،والألمانية،وحتى الإيطالية.فكان هناك سعي ذئوب في تأصيل الفعل النقدي الإبداعي،بالبحث في عناصر التراث،وما اشتمل عليه الخطاب التراثي من تنوع وإشراقات،واختلافات أيضا...إضافة إلى ذلك صار الإبداع المغاربي أكثر وعيا بالخصوصية الذاتية التي تعطي للأدب أبعاده الإنسانية والعالمية،مما يجعل النصوص الأدبية أكثر إخلاصا في مسارها الإبداعي،بعد انزواء نظرية الخطاب الإيديولوجي.وهذا الإخلاص هو ما جعل الفضاءات والأساليب الموظفة في الإبداع أكثر واقعية من ذي قبل.كذلك ابتعد الإبداع نسبيا عن محيط الجامعة،فوجد كتاب كتبوا نصوصا أكثر عمقا وتصويرا،خاصة في مجال الرواية،مع مزاوجة بعض الأسماء بين عملها الأكاديمي الجامعي،ومواهبها الإبداعية.

يمكن القول مما سبق:أن مسار الأدب المغاربي الحديث،بشقيه الإبداعي والنقدي،قد حقق رصيدا تراكميا نوعيا،وكميا في الآن نفسه.وهذا ما يدفع إلى التأكيد على أهمية هذا الخطاب الثقافي،وما يمثله من قيمة مضافة،ليست للأدب المغاربي في حدوده الجغرافية فحسب،بل إلى الأدب العربي ككل،والأوسع من ذلك الأدب العالمي أيضا.لأن الأدب المغاربي اليوم صارت له خصوصياته الفنية،وقضاياه المضمونية التي يتبناها،والتي تتصدر معالجة "المجالات المغلقة"،التي تهم كل إنسان.

إن الأدب المغاربي مثله مثل باقي الآداب العالمية الكبرى،ينطلق من واقعه الاجتماعي،وسياقه التاريخي،لينزاح عنهما وينتج خطابه الموازي للواقع،ويدخل في علاقات معه،من خلال إشراك المتلقي في العملية الأدبية،الذي يحقق له فيما بعد أبعاده الجمالية.

من هذه الخلفية الثقافية،يمكن الحديث عن الأدب المغاربي،كأدب ينتجه كتاب ينطلقون في معالجة همومهم،ووقائعهم الاجتماعية،من محيط جغرافي وتاريخي،كان يعد بمثابة "المركز"،أو كأنه الشرق في هذه الحال.وعليه لا يمكن تصور حديث ثقافي حول الأدب المغاربي،ينحصر ضمن ثنائية المشرق والمغرب.فالحقيقة تثبت أننا أمام أدب مغاربي له مقوماته،وخصوصياته الجمالية المميزة،ورؤيته للعالم والوجود،والقضايا الكبرى التي تشغل بال الإنسان.

ونتيجة للتفرد والتميز اللذان عرف بهما الأدب المغاربي الحديث،والعلاقة المباشرة التي تربطه بالأدب العربي المعاصر،نتيجة لهذه الوحدة الفنية والأدبية المأمولة،يمكن الحديث ساعتها عن تنوع قل نظيره في الآداب العالمية الأخرى،وهو التنوع الذي من شأنه أن يشكل غنى وثراء للأدب العربي المعاصر بشكل عام،والذي تبنى مشروع الحداثة منذ القرن التاسع عشر الميلادي.وصار منذئذ يعرف تحولات مستمرة على أيدي كتاب وشعراء،عمقوا أكثر الإحساس بالوعي الثقافي،والأدبي،والفني أكثر من ذي قبل،وهو التعميق الذي كان نتيجة إخلاص جهود الأدباء الذين يسعون اليوم في سبيل بلوغه.وهو ما يمكن من التفاؤل بتأسيس حركة أدبية،ومدارس أدبية ونقدية،تجعل من الأدب المغاربي والعربي أدبا إنسانيا وعالميا،بكل ما تقتضيه الميزات،والخصوصيات الفنية والفكرية.

-ج-الأدب المغاربي والمشروعية التاريخية:

يرى بعض الباحثين أن قرب الأدب المغاربي الحديث جغرافيا من بلدان أوروبا،والتفاعل الثقافي الذي حدث بين المثقفين المغاربة،والثقافة الأوروبية،والتأثر الشديد باللغة الفرنسية والإعجاب بها نتيجة الظرف التاريخي،الذي أوصل الأدب المغاربي إلى مصاف العالمية اليوم.وهذا الانتشار السريع والواسع الذي لقيه اليوم عربيا وأوروبيا،وعالميا،كان نتيجة الكتابة باللغة الفرنسية.

هذه الرؤية لها مبرراتها التاريخية من حيث الكتابة باللغة الفرنسية،نتيجة الوجود الاستعماري في بلاد المغرب العربي.والاعتقاد بالعلاقة المباشرة من حيث التأثير والتأثر بين الثقافة المغاربية،والثقافة الأوروبية من الناحية الموضوعية،هو قفز على الواقع الثقافي والإبداعي المغاربي؛الدليل على ذلك فاعلية الأسماء الأدبية المغاربية،التي أنتجتها بيئة مغاربية محلية،لتصل بعد ذلك بأعمالها إلى مستوى العالمية؛هذا المستوى الذي نالته نتيجة الخصوصية والتفرد في نقل الوضع الاجتماعي المغاربي في ذلك الوقت.ولا أدل على ذلك أيضا من ترجمة الكثير من الأعمال الروائية والشعرية القصصية إلى لغات عالمية معروفة،ثم وصلت بعد ذلك إلى مدارج الارتقاء والترشح لنيل جائزة "نوبل للآداب".وكانت هناك أسماء رائدة رشحت من قبل لهذه الجائزة،مثل:محمد ديب،وآسيا جبار من الجزائر،والطاهر بن جلون من المغرب.

من المعروف جدا أن تكون الذاكرة العربية بصفة عامة مشرقا ومغربا،تعلق بها خلال سنوات الخمسينات والستينات من القرن الماضي شئ عن الأدب المغاربي؛يتعلق هذا الشئ في غالبيته بالشعر بحكم الظروف التاريخية والثقافية.

كذلك يطرح عامل بعد المسافة بين المشرق العربي والمغرب العربي في ذلك الوقت،وضعف وسائل الاتصال ومحدوديتها في كثير من الأحيان،وقلة المنشورات المتعلقة بالأدب المغاربي وحوله؛مثل هذه العوامل كان لها التأثير المباشر في ضعف التواصل و"التثاقف"،وضعف تبادل الخبرات،وكل ما يتعلق بعوامل التطور الثقافي والأدبي،ضمن الأمة الواحدة من حيث اللغة،والدين،والتراث،والتاريخ المشترك...هي جميعها أسباب أضعفت تطور الأدب المغاربي إعلاميا،وحدت من شهرته وانتشاره.

ربما يكتسب الأدب المغاربي الحديث مشروعيته التاريخية،من باب مقاومته المستمرة لمحاولات الاستئصال والاستلاب الثقافي،التي دأب الاستعمار الفرنسي على انتهاجها منذ جثومه على بلاد المغرب العربي.وبالفعل فقد دأب الاستعمار الفرنسي على سلخ المغرب العربي عن ثوابته الحضارية،وعمل كثيرا على فصله عن مشرقه،وربطه مباشرة بالحضارة الغربية-الفرنسية منها خاصة-،الشئ الذي أثر سلبا على كل المحاولات الجادة في التواصل والاتصال.

وخلال الاطلاع على إنتاج الأدب المغاربي،ومحاولة التقرب من أنواعه وبنيته،يمكن تمييز الشعر كأكثر الفنون الأدبية بروزا في تلك الحقب السالفة،وما قبلها.وهو الفن الأدبي الذي يمثل امتدادا لبنية القصيدة التقليدية بعمودها الشعري العربي المعروف،إضافة إلى الخطاب السياسي التحرري،والداعي إلى الاستقلال في تلك الحقب أيضا،إلى جانب الشعر الديني والإصلاحي؛هذان مثلا الصورتين الطاغيتين على أدب تلك الفترة الزمنية.

ومن المفيد القول:أن المسجد أيضا كان له دورا هاما جدا ومميزا،وفاعلا في صياغة التوجه الأدبي،بحكم أنه المكان الذي تصدر لمقاومة الاستعمار في شقه الثقافي والحضاري.

وبعد بداية استقلال بعض دول المغرب العربي،بداية من سنوات الخمسينات والستينات من القرن الماضي؛وما عرفته إثر ذلك هذه الدول من عمليات التعريب بهدف رد الاعتبار للمقومات الحضارية لهذه البلدان،اتجه المبدعون المغاربة إلى الاتصال والتواصل مع غيرهم،والاطلاع على مجريات الثقافة العربية في البلدان المشرقية،والاحتكاك بمدارس التجديد،والأخذ من محيطها الواسع الممتد بأبعاده التراثية والتاريخية.والشئ الذي ساعد أكثر على هذا الانفتاح،هو الاستقلال المبكر الذي فعل فعله في التطور والتجديد،إذا ما قيس الأمر بأدب المغاربيين العرب.

وما يحمد لجهود المبدعين المغاربة،هو سعيهم الجاد للحاق بمستجدات الحداثة الأدبية للأدب المغاربي والعالمي؛معتمدين في ذلك على إرادتهم الإبداعية والموهبة الأصيلة،والإمكانات الفنية المميزة،والثقافة العالية التي تحلوا بها.فقد استطاعوا فعلا إتحاف الفن الأدبي العربي والعالمي بأشعار وروايات وقصص فنية مثيرة،هي اليوم في قمة الفن الإبداعي؛الشئ الذي جعلهم يؤسسون لأنفسهم مكانة عالية في سلم الثقافة العربية والعالمية.

ومن جانب آخر كان لهم تأثيرات مميزة في التفاعل الثقافي،وهذا نتيجة قربهم من أوروبا واطلاعهم المستمر على ثقافتها،بفضل إمكاناتهم اللغوية العالية-التحكم في اللغة الفرنسية خاصة-.من هذا الجانب إضافة إلى جوانب سابقة أسس الأدباء المغاربة لأنفسهم مكانة عربية وعالمية،جديرة بهم كمبدعين.

تؤخذ في غالب الأحيان مشكلة اللغة،كإحدى المعوقات الكبيرة في التواصل بين الأدب المغاربي،وغيره من آداب المشارقة الناطقة باللغة العربية.وربما ذهب البعض إلى الاعتقاد الجازم بصعوبة اللغة واعتبارها عيبا من عيوب إقامة وحدة أدبية عربية شاملة.وهذا الذي يقصد به الإعاقة الكبرى في سبيل قيام تلك الوحدة الأدبية العربية.وكما سلف القول،الظرف التاريخي وما نجم عنه من تواجد الاستعمار الفرنسي،هو الذي أدى إلى التعددية اللغوية في الثقافة المغاربية الحديثة،الأدب منها على وجه الخصوص.ولكن لا يمكن الإبقاء على اللغة كمشكلة حقيقية،لأن هذا يتنافى إلى حد ما والطرح الموضوعي للمسألة.والسبب في ذلك أن بلدان المغرب العربي،خاضت بعد الاستقلال عملية التعريب،كان هذا على وجه التحديد خلال سنوات الستينات والسبعينات،وعليه فخلال السنوات الأخيرة لم تمثل اللغة مشكلة فعلية في التواصل.

ويذهب بعض الباحثين إلى مؤاخذة المثقفين المغاربة لرفضهم تقبل الحداثة،لدى بدايات وصولها إلى العالم العربي،-إذا كان بالإمكان التسليم بأن الحداثة متفرعة إلى حداثات متجددة،ولا يمكن الاعتقاد فقط بحملة واحدة على العالم العربي،هي تلك التي كانت مع حملة "نابليون بونابرت"على "مصر"-.وبقي المثقفون المغاربة يعتقدون بأن الحداثة،هي نتاج استعماري هدفه الأساسي استئصال الثقافة العربية الإسلامية.كان هذا في البداية،لكن مع مرور الوقت تغيرت المواقف،والمثقفون المغاربة اليوم يسعون جاهدين في الإسهام في رسم مسار الحداثة العالمية.وقد أسهمت ترجماتهم الكثيرة عن اللغة الفرنسية في التعريف بأكبر الأعمال النقدية،والإبداعية العالمية.

منذ سنوات قلائل فقط صار القارئ العربي يطالع،قصائد نثرية ممتازة من الناحية الفنية صادرة من تونس و المغرب،هي أقرب من حيث المستوى الفني لشعر العراقيين،واللبنانيين،والسوريين.وظهرت في الجزائر روايات غاية في الأهمية،وبتحكم فني راق في أساليب هذا الفن التصويرية؛كل هذه مؤشرات حقيقية على المستوى الفني والثقافي الخصب،الذي تشهده اليوم بلدان المغرب العربي من الناحية الإبداعية على وجه الخصوص.

تقتضي الكتابة عن الأدب المغاربي الحديث،معرفة كافية عنه؛هذا من الناحية المنهجية والعلمية.وقد لقي الأدب المغاربي اهتماما فعليا في الآونة الأخيرة من لدن المشارقة؛بحيث صار معروفا لديهم شئ ثقافي مؤسس هو الأدب المغاربي الحديث.كان هناك كتاب حقيقيون مثلوا المصادر الحديثة الهامة لهذا الأدب الحديث النشأة والتطور،مثل:عبد الكبير الخطيبي،الذي فتح المجال واسعا للاطلاع على الشعر المغربي الحديث.ثم أبو القاسم الشابي بعد ذلك في تونس في قصيدته الشهيرة"إرادة الحياة".

وفي الأدب المغاربي دائما يمكن إيجاد الاتجاه الكلاسيكي متحايلا على النص الشعري المغاربي في العديد من الأحيان.هذه الكلاسيكية العنيفة واللذيذة في كثير من المرات تحد النصوص الشعرية المغاربية،وتبقى ملازمة لها.

في العديد من الأحيان لا تستساغ صفة الأدب المغاربي،كصفة مميزة عن الأدب المشرقي،والمسألة متعلقة في معظم الأحيان بخاصية جغرافية-كما سلف القول-،تميز هذا الأدب عن غيره من بلدان المشرق العربي،وأي منطقة جغرافية في العالم،مع الإبقاء على الصفة العربية بالتأكيد.

تأتي صفة الأدب المغاربي على صفة(محمول جمع الشتات)،وهي الميزة(الشتات)التي ميزت العرب بصفة عامة على امتداد تاريخهم القديم والحديث معا-مع استثناء تاريخ الدولة الإسلامية الموحدة-.

والمتفق عليه دائما أن الأدب المغاربي الحديث،ذو صفات خاصة وملامح مميزة.وبالتأكيد فالعامل الجغرافي والقاري،والحضاري يلعب دائما دوره،إضافة إلى الجوانب السياسية.مثل هذه العوامل تلعب دورها الكامل دون استثناء عامل واحد من هذه العوامل ذات الأثر المباشر.وهي العوامل التي أسست الميزة الأساسية لهذا الأدب.وتبقى دائما الميزة العامة سائدة،وهي ميزة"العربية"؛بمعنى أن الأدب المغاربي جزء من منظومة ثقافية حضارية عربية واسعة،هي"الأدب العربي".

ويتصف أحيانا الأدب المغاربي الحديث،بصفات أصيلة،هي من صميم الأدب العربي في شقه التراثي،والتي تكاد تختفي في كثير من إنجازات الأدب العربي المشرقي.وفي حال وجود ملامح معينة تتبع تلك المؤثرات الخاصة،فهي موجودة بطبيعتها الإيجابية والسلبية في الآن معا.وحين تعرضت منطقة المغرب العربي للاستعمار الفرنسي،والإسباني،هذا العامل أثر أيضا بسماته وقسوته في الثقافة المغاربية الحديثة،نتيجة الطبيعة التعسفية التي ميزت تلك الفترة التاريخية والمتعلقة أساسا بمحاولة فرض اللغة الفرنسية،وما يتصل بها من ثقافة فرنكفونية.لكن بقيت دائما المواصفات الأصيلة للثقافة المغاربية،والتي شكلت عوامل قوة للحفاظ على الهوية،أمام محاولات التغييب والمسخ،والتحويل المستميتة.

وربما تلك الميزات الأصيلة،هي التي حفظت دوافع الإبداع إلى مرحلة متقدمة،وجعلتها تنفتح على الجمالية الغربية،وسائر المدارس المعرفية الأدبية والنقدية الجديدة،مع الاحتفاظ بالطبيعة الأصيلة في الوقت نفسه.فاستطاعت بذلك الحركة الأدبية المغاربية،أن تضيف جسورا للانتقال والعبور الحضاري،مع وجود بصمات الإضافة اللافتة،ليس فقط في متن الآداب المغاربية،إنما في الدراسات النقدية أيضا؛بمعنى أن المسيرة تواصلت بشكل متوازي،أشبه ما يكون بالتحولات الأولى من الآداب الإنسانية القديمة،كالآداب اليونانية،والفنون الرومانية،والآداب والفلسفة الهندية،والصينية للغة العربية وجوانبها المعرفية.هذه التحولات حملت ذات النكهة والنوعية،وإن بدت مواضع القوة مختلفة إلى حد ما.ففي الوقت الذي كانت العملية الأولى تتم تحت نمط من القوة المادية،كانت الثانية تتم تحت نير الاستعمار،وما حمله من طغيان وظلم.

بقيت بعض الاستثناءات الناجمة عن العمليتين،وهي تلك المتمثلة أساسا في وجود إنتاجات أدبية راقية،وذات القيمة الجمالية المميزة،إلى جانب الإنتاجات المشوهة والمستلبة،سواء على مستوى الموضوع أو الشكل الفني.إلى جانب التعجبات المسجلة كذلك في خانة الأدب المغاربي ذو الصلة الحميمة مع الأدب الأندلسي سابقا؛هذه الصلة التي مثلت المحطة الأولى في الطريق إلى البحر،وإلى الأندلس بعد ذلك.وهي الصلة التي من الممكن أن تمثل لدى العديد من الناس شيئا انطباعيا ومفترضا،ولكنها شيئا واقعيا ولا تحتاج إلى كبير جهد للتدليل عليها.هذه الصلة التي من الممكن أن تكون مفخرة للأدب المغاربي الحديث،التي تثبت صلته بالماضي التليد.

مقابل ذلك فمن خلال علاقات الأدب المغاربي الحديث بالثقافة الأوروبية الحديثة،يكون قد أضاف شيئا مميزا على صعيد الأدوات الفنية والتصويرية.وتلك ميزة موجودة بحكم طبيعة هذه العلاقات،وطبيعة التأثير والتأثر أيضا.وهذا الأمر يخص كل العوامل الفنية والجمالية،والبلاغية،والمعرفية.

ومن خلال هذه العلاقات المميزة مع الثقافة الأوروبية،تتحدد طبيعة الأشكال الفنية من حيث الفروق؛فالسرد المغاربي مثلا رغم انفتاحه على آليات تعبيرية حديثة ومميزة،دائم الارتباط بالتراث السردي العربي القديم،كما أنه دائم الارتباط بالثقافة العربية القديمة،والتاريخ العربي الإسلامي أيضا.في حين يبدو الشعر على النقيض تماما؛إذ أنه يحاول التشبث بخصوصيات

السياق العربي التاريخي بأنساقه المتعددة.وعلى الرغم من التحديثات النسقية الموجودة،والتي تخص دائما الجوانب الجمالية البحتة،يبقى هذا القديم مستأسدا بصفة بارزة؛نعم يمكن الإقرار بهذا "التثاقف"الحاصل بين الأدب المغاربي الحديث بمختلف أشكاله الفنية لاسيما الشعر والنثر،لكن يبقى النثر دائما أكثر التصاقا بمعطيات الحداثة السردية.

تبقى الرواية من الناحية الموضوعية خارج الإطار المدرسي العربي،بحكم تأسيساتها الأولى كفن غربي بالدرجة القصوى- من الناحية الفنية الحديثة على الأقل-.«وهكذا نكون خارج منظومة القياس والمقايسة،إن أريد لها أن تكون على أساس مناطقي،مغربي فمشرقي.إذا كان حظ الأدب العربي في المشرق أن يكون أكثر تواجدا خلال القرن المنصرم عربيا(القرن العشرون)،فإن ثمة أسباب معلومة لهذا،تتعلق بموضوعية التغريب الجبري،لكنه اليوم يشهد انتشارا جميلا نحبه ونستحبه؛بل ولو لم يفعل لسارعنا لأن نطلبه،لأن هذا واجب عربي أولا،ولأن هذا الأدب يمكنه أن يكون رافعة جميلة للأدب العربي بعامة،إن حان درس المثاقفة»[1].سواء كان هذا مع أوروبا،أو مع أية بلدان أجنبية أخرى،مع توفر الشروط الثقافية والتاريخية.

إن الأدب المغاربي الحديث،ذو خصوصية واضحة بحكم وجود نماذج متميزة لهذا الأدب.ويمكن في هذا الصدد ذكر القوة الفنية مثلا التي تتمتع بها أعمال الروائي المغربي الطاهر بن جلون،إلى جانب أعمال الروائي الجزائري الطاهر وطار.بالإضافة إلى التراكم الفني لأعمال أدبية هامة من صنع أدباء مميزين أمثال الكاتب مولود فرعون،ومحمود المسعدي،ورشيد بوجدرة،وإدريس الشرايبي،وكاتب ياسين،ومحمد عزيزة...وغيرهم من الكتاب المميزين.

والأدب المغاربي على العموم مهما كانت طبيعة الكتابة به،ونوعية اللغة،عربية كانت أم فرنسية،دليل على مظهر الأزمة الثقافية العربية في منطقة جغرافية محددة؛لأن الصحافة العربية المشرقية في حقيقة الأمر، لاسيما في مصر وسوريا،ولبنان،لعبت دورا مميزا في تسليط الأضواء على الأدباء المشارقة،باعتبارها(الصحافة المشرقية)شكلت مركز الإشعاع الثقافي العربي في وقت ما،مع تجاهل هام لمنجزات أدباء المغرب العربي.

من جانب آخر ساعدت الصحافة الأدبية بشكل ملفت للانتباه،في سرعة ذيوع أسماء أدبية في قامة نجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس،ويوسف السباعي،وأنيس منصور،وغادة السمان،وجبرا إبراهيم جبرا،وحنا مينة،وعبد الرحمان منيف...في حين بقيت الأغلبية العظمى من المثقفين العرب على جهل واضح بشخصيات أدبية مغاربية هامة،كالكاتب الجزائري مولود فرعون الذي ترك أعمالا روائية هي في مستوى العالمية اليوم.لعل هذا من بين نقاط القصور في الإعلام العربي الحديث،في الجانب الأدبي والثقافي خاصة؛حيث جعلت الكثير من المثقفين العرب يجهلون كتابا من الطبقة الأولى،لأنهم(من دول الأطراف العربية)،بينما سلطت الأضواء على أدباء دول المركز العربي.

تطرح من باب آخر بحدة إشكالية الأدب المغاربي المكتوب باللغة الفرنسية،وليس المقصود هنا الخوض في مسألة الهوية والانتماء؛إنما المسألة متعلقة بسؤال محوري وهام هو:هل تشيع العديد من كتاب دول المغرب العربي،للكتابة باللغة الفرنسية،في حين سجل انصراف قدر هام من المشارقة،وبقية المثقفين العرب إلى مطالعة الأدب العربي فقط؟..هذا سؤال

---

[1] أيمن اللبدي:دهشة مقيمة في خامة معظم الأدب المغاربي،-ملف الأدب المغاربي..أية خصوصية نظرة عليه من شرفة مغاربية ومشرقية-،إعداد نوارة لحرش،مركز النور،موقع على الأنترنت

من بين الأسئلة المعرفية التي لا تزال مطروحة،ومن الأسئلة التي تحمل إشكالات هامة،حول موضوع هام من مواضيع الأدب المغاربي الحديث.

لقد كتب العديد من الكتاب المغاربة،أعمالهم باللغة الفرنسية،ونشروها بهذه اللغة أيضا،فلاقت أعمالهم تلك حرية أكبر،كما ابتعدت عن رقابة المنشورات العربية.واليوم هذه المفارقة التي كانت حاصلة بين أدب مكتوب باللغة العربية،وآخر مكتوب باللغة الفرنسية من المنطقة الجغرافية نفسها،أو من الانتماء الحضاري نفسه بشكل عام،تغيرت كثيرا.فقرأ المشارقة رواية"الخبز الحافي" للكاتب المغربي محمد شكري،حيث لاقت رواجا في المشرق العربي،قبل أن يكتشفها القراء المغاربة لدواعي رقابية.كما قرأ المشارقة أعمالا لمحمد برادة،وواسيني الأعرج،وأحلام مستغانمي في الآونة الأخيرة؛هذا بغض النظر عن ذيوع اسم روائي جديد يكتب باللغة الفرنسية هو"ياسمينة خضرة"(اسمه الحقيقي محمد مولسهول)،وهو الظاهرة الروائية الجديدة في الأدب المغاربي الحديث،إلى جانب الكاتبة أحلام مستغانمي.

ويسجل بفخر معتبر الحضور المميز للرواية المغاربية الحديثة،في الملتقيات والمؤتمرات العربية؛فقد شهدت "القاهرة" و"الدار البيضاء"جلسات ملتقى الرواية المصرية والمغربية أكثر من دورة خلال السنوات القليلة الماضية[1].كما عقد المؤتمر نفسه "بالمغرب"،لعقد روابط التقارب بين الأدب المغاربي والأدب المشرقي.وهذا التقارب كانت له نتائجه الإيجابية، بين أدباء المنطقتين؛حيث اتجه العديد من الأدباء المغاربة إلى طبع رواياتهم بالمشرق العربي،باللغة العربية أو ترجمتها إلى اللغة العربية،إن كانت باللسان الأجنبي.«وحرص أدباء المشرق أيضا على إعادة طبع أعمالهم القصصية والروائية بالمغرب العربي،منهم إبراهيم أصلان،،وسعيد الكفراوي،وخيري عبد الجواد.وبالمقابل وجدنا -على سبيل المثال لا الحصر-،الروائي صلاح الدين بوجاه،يحرص على طبع روايته المتميزة"النخاس"بالقاهرة أكثر من طبعة»[2].

يلاحظ في السنوات الأخيرة استحسان وتقبل كبيران للأدب المغاربي الحديث من لدن الجماهير الثقافية العربية قاطبة؛حيث صار له أنصار،ومريدون،ومحبون أيضا،لما فيه من جدية،وابتكار على مستوى الأدوات الفنية،والمضامين على وجه الخصوص.إضافة إلى تجاوز المضامين الإيديولوجية الضيقة،التي سادت في سنوات الستينات والسبعينات من القرن العشرين،والتوجه نحو عالم أدبي أرحب وأوسع،بعيدا عن التقيد بزاوية واحدة من القراءة.لأن الأدب المغاربي صار متشبعا بالرؤى والتطلعات المختلفة؛ يسعى سعيا جادا للبحث والتنقيب عن المعاني الفنية الراقية،والقيم الجمالية الرفيعة.

إن المطلع على الأدب المغاربي، لاسيما الجزائري منه،يسجل هذه المعادلة المحسوسة منذ البدء،والمتعلقة بالمحافظة على طبيعة الزمان والمكان والشخصيات.كما يدخل في ملاحظة خاصية "التجريب"منذ العتبات الأولى لمطالعة النصوص،ويشرع في اكتشاف مواضع الحداثة،بكل ما فيها من تجدد للطاقات اللغوية،والأساليب الشعرية والسردية،واستيعاب التراث والتاريخ،وتوظيف التناص بشكل يتجاوز الكثير من الصور الفنية والجمالية المألوفة.أدب يلاحظ القارئ المجتمعات تتحدث من خلاله،ليس من منظور النظريات الاجتماعية المألوفة،بل من منظور النماذج الإنسانية الموظفة؛يبدو بكيفية فنية عبر الحروف والكلمات،فتلتحم الأفكار والخيالات الضبابية بالواقع،وتتعارض الرؤى وتتداخل،فتطيب القارئ بشذاها،فيقرأ معارضة ذاته في "بخور السراب"،ونبحث في ذاكرتنا الحية،لنجد التاريخ يرسم

---

[1] خليل الجيزاوي:تلاقح الأدب المغاربي و المشرقي،ضمن ملف الأدب المغاربي..أية خصوصية..الموقع نفسه

[2] خليل الجيزاوي:الموقع والمقال نفسه

مسارات متشعبة لواقع زمني حي،صاغت تجاعيده الأعضاء المبتورة كما حدث في رواية"ذاكرة الجسد"[(1)]،ثم تعيش أثر وقائع التاريخ في عالم محفوف بالفوضى،مشوبا أكثر بالعدمية المبهمة،كما كان في رواية"فوضى الحواس"[(2)].ثم نعبر إلى جهة جديدة من العالم،عبر رواية"عابر سرير"[(3)]،بعد معايشة وقائع مليئة بالمرارة والخيبات المتكررة؛فلم تعد هنالك فوارق تبدو بين هموم نسائية وأوجاع أنثوية،وما يريده الرجل أمام سراديب التلاشي والعدم.فنجد الرجل يرسم مرارة واقعه نتيجة فقدانه لذاته،بسبب شقيقه الرجل في رواية"حارسة الظلال-دون كيشوت في الجزائر-"[(4)]،ونتجشم أكثر مع رواية"دم الغزال"[(5)]،حين توشك الذات البطلة أن تفقد حياتها بسبب قول كلمة الحق،والأمل في غد أفضل،لتستحيل أفكار المفكر إلى دماء يلاحقها المتربصون بالحرية تحت شرعيات شتى،بعد تضخم الآلام.

ترسم الرواية المغاربية الحديثة ضمن وقائع متموجة،واقع الفرد الجزائري،الذي يجد نفسه مبحرا دون وعي بين أمواج التطرف،والاعتقادات المغلقة،متسائلا دائما عله يفهم شيئا؛ليصبح وليا يضاهي أولياء الله الصالحين برؤية حداثية،وجديدة لم يسبق لها من قبل.فيسعى إلى تحقيق شئ ما حتى لو كان قذرا،وذلك بالدوران حول التاريخ كما حدث في رواية"الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"[(6)].ثم تتكاثف الجهود بعد استقامة الولي الطاهر،وإدراكه الظلام كما هو الحال في رواية"متاهات ليل الفتنة"[(7)].

كل ما حدث على الرغم من تناقضاته العميقة،وظلمة لياليه الطويلة الحالكة لم يحرم مجتمعات المغرب العربي الكبير،من إبداع مغاربي أصيل،مفعم بالأمل،قوي الإرادة،كما جسدته قصيدة "إرادة الحياة"لأبي القاسم الشابي؛هذا الإبداع الذي تميز بالانطلاق المؤسس من الموروث الحضاري،ليعانق مقتضيات فكر الحداثة الأدبية.هذه الإرادة حولت الرسومات والفنون التشكيلية والبصرية إلى ذاكرة تنبض بالحياة،لترسم جسور مدينة "قسنطينة"في رواية "ذاكرة الجسد"،«ولتجعل هذه الهوية المغاربية والأمازيغية،تظهر بثقة عالية واعتزاز كبير،لأنها وسم ووشم لهذه الأجناس التي تتعايش وتتحلق في أعمال روائية وسيرية،ترى ما تريد»[(8)]لأنها حرة طليقة،وترسم تفاصيل جمهورياتها الخاصة في رواية"جمهورية مريم"[(9)]،ولتكتب بحروف خالدة وقائع المدينة المغربية بكل بساطتها وصدقها،وحميميتها من خلال الذاكرة الشعبية لدى شعيب حليفي،ثم كان التوظيف المثالي للأسطورة،التي أتاحت مساءلة التاريخ،وتقف أمامها على حافة التحدي،إما نغلبها،أو تغلبنا في رواية"حروف الضباب"[(10)].

---

(1) رواية للكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي

(2) رواية للكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي

(3) رواية للكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي

(4) رواية للكاتب الجزائري واسيني الأعرج

(5) رواية للكاتب الجزائري مرزاق بقطاش

(6) رواية للكاتب الجزائري الطاهر وطار

(7) رواية للكاتب الجزائري أحميدة العياشي

(8) سعاد العنزي:الأدب المغاربي بين التمسك بالأصول والتحليق فوق أفق التجريب-ملف الأدب المغاربي..أية خصوصية نظرة عليه من شرفة مغاربية ومشرقية-،إعداد نوارة لحرش،مركز النور،موقع على الأنترنت

(9) رواية للكاتب المغربي شعيب حليفي

(10) رواية للكاتب الجزائري الخير شوار

وضمن مسائلة التاريخ دائما،كانت آفاق تفاصيل الماضي تلوح بملامحها الكئيبة من خلال المزج المثالي بين التاريخ والسيرة الشعبية،لكن هذه المرة في مساءلة الواقع والنقد،لتتجاوز التقييم الموضوعي للواقع، ومقابلته الطريفة بوقائع تاريخ الأندلس،ومآسي الموريسكيين بالأمس،في رواية "فاجعة الليلة السابعة بعد الألف"[1].

تثبت الحقيقة الموضوعية،أن الأدب المغاربي أدب عظيم بكل شخصياته الفاعلة،والهموم الإنسانية التي جسدها في ثناياه،لتحقق تقاطعها الإيجابي مع أية ثقافة،وأي مجتمع؛ولا يعد التشابه شرطا فنيا،لأن الاختلاف لا يفسد أي وسيلة من وسائل التواصل الإنساني.

كما أثبت الأدب المغاربي الحديث،قوة بنيته المعرفية والفكرية،لغنى أعماله بالتجارب والومضات الإنسانية،والاقتراحات المعرفية التي جسدتها الآليات الفنية والجمالية والإبداعية.

المراجع:

1- جريدة النصر الجزائرية-يومية وطنية-،يومي:26/12ماي2009

2-د.أحمد منور:الأدب الجزائري باللسان الفرنسي-نشأته وتطوره وقضاياه-،ديوان المطبوعات الجامعية،-الجزائر،الطبعة الأولى، 2007

3-رينيه ويليك:مفاهيم نقدية،سلسلة عالم المعرفة،-دولة الكويت،ترجمة،د.محمد عصفور،شباط-فبراير1987

4-Jean Déjeux,La Littérature Algérienne Contemporaine,coll.que-sais-je,puf,paris1975,p,11/12

5-Fadila Yahioui,Roman et société coloniale,dans L'algérie de l'entre deux guerre..ed,enal-Alger-Bruxelles.1985,p,17

6- الأدب المغاربي..أية خصوصية نظرة عليه من شرفة مغاربية ومشرقية-.إعداد نوارة لحرش،مركز النور،موقع على الأنترنت

---

[1] رواية للكاتب الجزائري واسيني الأعرج